الفصل الأول

تقدير ابن المبارك

جمع القرن الثانى للهجرة صفوة من خيار المؤمنين الذين كانوا قمة فى العلم ، وكانوا قمة فى الأخلاق الكريمة .

ولقد وحدَّت السنة الشريفة بين مشاربهم ونزعاتهم .

لقد كانت دراسة السنة فى هذا العصر طابعًا يشبه أن يكون عامًا بين المثقفين ثقافة عالية ، ومن بين هؤلاء ثلاثة رجال جمع بينهم العلم وجمعت بينهم الصداقة .

أحدهم : سفيان الثورى رضى الله عنه ، وقد بلغت منزلته فى الحديث أن كان يقال له : أمير المؤمنين فى الحديث – وكان مسنده يحوى ثلاثين ألف حديث ، ومع ذلك فقد كَان يقول : « ما حدثت – مما أحفظ – إلا بواحد من كل عشرة أحاديث »

وبلغت منزلته فى مكارم الأخلاق أن كَان قوة يضىء السبيل للحيارى والسالكين .

ولقد ألقى بنفسه فى قوة وصدق وإخلاص فى الحرب التى تدور – وهى تدور على العصور – بين الفضيلة والرذيلة .

لقد تعرض بالنصيحة الدائمة للشعب ، وتعرض بالنصيحة الدائمة للحاكم إلى أن ضاق بنصائحه أبو جعفر المنصور – كما يضيق بالنصح كل طاغية – فنادى : « إذا رأيتم سفيان الثورى فاصلبوه » ولكن الله

سبحانه حفظه من كل سوء بسبب إخلاصه ، ومات أبو جعفر وبقى سفيان الثورى – ولقد سئل مرة ابن المبارك : مَنْ أئمة الناس ؟ فقال : سفيان وذووه .

أما الثانى : فهو الفضيل بن عياض رضى الله عنه ، محدث ثقة ، روى له أئمة الحديث من أمثال البخارى ، ومسلم رضى الله عنهما ، وقد بلغ الفضيل القمة فى الورع وفى محاسبة النفس فى الدقيق من أمرها والجليل ، بحيث يكون كل عمل من أعماله خالصًا لوجه الله تعالى .

لم يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة ، وإنما أتاه السلطان إلى عقر داره ؛ فكان استقباله للسلطان استقبال العالم المؤمن الورع الذى يعتز بالله ويثق فيه ويخشى الله ولا يخشى أحدًا إلا الله .

وله – كصديقه سفيان الثورى – فى مجال الصلة بالسلطان حوادث ارضى فيها الله والفضيلة .

ومن تقدير ابن المبارك للفضيل ، قوله : قد جمعت علم العلماء فليس فيما جمعت أحب إلى من علم الفضيل بن عياض .

وأما ثالث هؤلاء الصفوة : فهو عبد الله بن المبارك .

ومن تقدير سفيان الثورى والفضيل بن عياض له ، ما يلى :

روى عمران بن موسى الطرسوسى قال : جاء رجل فسأله سفيان الثورى عن مسألة فقال له : من أين أنت ؟ . فقال : من أهل المشرق . قال : أو ليس عندكم أعلم أهل المشرق ؟. قال : ومن هو يا أبا عبد الله ؟ قال : عبد الله بن المبارك .

قال : وهو أعلم أهل المشرق ؟ قال : نعم ، وأهل المغرب .

وعن أحمد بن عبدة ، قال كان فضيل وسفيان ومشيخة جلوسًا فى المسجد الحرام ، فطلع ابن المبارك من الثنية ، فقال : سفيان : هذا رجل أهل المشرق .

فقال فضيل : هذا رجل أهل المشرق وأهل المغرب وما بينهما .

ولا نحب أن نوازن بين هؤلاء الثلاثة ، ولا بين عبد الله بن المبارك وغيره من أفاضل عصره ، فإننا نجلهم عن أن نعقد موازنة بينهم ، فهم أهل للفضل وأهل للثناء .

وهؤلاء الأئمة وأمثالهم يجب علينا أن نوضح من سيرهم لشبابنا ما ينير الطريق المستقيم أمامهم ، إن سيرهم تضع شبابنا فى جو إسلامى من ناحية الفكر ، وفى جو إسلامى من ناحية السلوك ، وسيرى شبابنا مثلا عليا . يَنْدُر أن يجد الإنسان ما يضارعها فى تاريخ الغرب فى ماضيه أو فى حاضره .

لقد رسم الإسلام بطابعه – وما زال – طائفةً من الناس هم المثل العليا للإنسانية : استمدو شعارهم من الجو الربانى الذى يشع من القرآن الكريم ومن السيرة النبوية الشريفة فأسلموا وجوههم لله ، واستجابوا إلى ما رسمه الإسلام من سلوك مبنى على إسلام القلب لله .

والأمة الإسلامية : أحوج ما تكون الآن إلى وضع الشباب ، بل ومنْ هم أسنُّ من الشباب ، فى الجو الإسلامى الصادق .

والوسيلة السهلة الجذابة فى ذلك إنما هى التحدث عن سيرة رجال الإسلام الصادقين أمثال مالك والشافعى وابن حنبل ، وأمثال الحسن البصرى ، وعمر بن عبد العزيز ، وسفيان ، والفضيل ، وابن المبارك

والبخارى ، وعشرات غيرهم فى كل فن من فنون العلم ، وفى كل قمة من قمم الفضيلة .

ونعود إلى ابن المبارك ، وإذا كنا نمتنع عن الموازنة فإننا لا يسعنا إغفال تقدير العلماء لعبد الله بن المبارك سواء أكانوا فى عصره ، أم كانوا بعده ، وقبل أن نورد تقدير العلماء له نحب أن نقول إن الكثير من هذه التقديرات يمكن أن تقال فى أمير المؤمنين فى الحديث سفيان الثورى وفى الإمام الورع – القمة فى الورع – الفضيل بن عياض .

ونحب أن نبدأ من هذه التقديرات بما أورده حاتم الجوهرى فقال : حدثنا أسود بن سالم قال : كان ابن المبارك إمامًا يقتدى به ، كان من أثبت الناس فى السنة ، إذا رأيت رجلا يغمز ابن المبارك بشىء فاتهمه على الإسلام .

ونحب أن نقف عند هذه الكلمة ونتساءل : لماذا يتهم على الإسلام من يغمز عبد الله بن المبارك ؟ لماذا ؟ إن التعليل لذلك واضح من الجو الإسلامى كله ، إن الله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى من إخراج الإمام البخارى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » وأولياء الله حَدَّدَ الله سبحانه صفاتهم ، إنهم :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس : الآية ٦٣] .

وقد كان الإمام ابن المبارك فى القمة من الإيمان ، وفى الذروة من التقوى ، فمن غمزه فهو فى حرب من الله ، وهو إذن متهم على الإسلام – ولكن الأمر ليس خاصًّا بابن المبارك ، فإن كل من غمز

وليا من أولياء الله فإنه فى حرب من الله سبحانه ، وهو بالتالى متهم على الإسلام .

إن بعض الناس يضيق بالفضيلة ذرعًا لأن نفسه أظلمت واستحبت الحياة الدنيا بشهواتها وأهوائها على الآخرة ، وهى لذلك تحب أن تلوث كل فاضل وتنتقص كل كامل ؛ ومن هنا كانت عداوة الأولياء ، وعداوة الأولياء هى عداوة لصفاتهم ، أى عداوة للإيمان وعداوة للتقوى فمن عاداهم اتهم فى إسلامه .

وتقدير آخر صادر عن علم من أعلام العلم : إنه ابن عيينة يقول : « نظرت فى أمر الصحابة ، وأمر ابن المبارك ، فما رأيت لهم عليه فضلا إلا بصحبتهم النبى ﷺ وغزوهم معه » !

إن الصحابة رضوان الله عليهم كرجال لا يفضلون ابن المبارك ، إنه كان مجاهدًا كما كانوا يجاهدون ، وكان مخلصًا كما كانوا مخلصين ، وكان عالمًا بالسنة ، وكان فاضلا .

بيد أن ابن عيينة حينما تحدث عن صحبتهم للنبى ﷺ وغزوهم قفز بهم فى الفضل قفزة هائلة تقطع الرقاب دونها ؛ لقد اقتبسوا من أنوار رسول الله ﷺ كل بحسب استعداده ، ولقد قال رسول الله ﷺ فيهم فيما رواه عمران بن حصين رضى الله عنهما وأخرجه البخارى — « خير أمتى قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه فى أبى بكر رضى الله عنه : « إن من أمن الناس على فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذًا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام ، ومودته » .

وقال فى عمر رضى الله عنه فيما رواه سعد بن أبى وقاص

رضى الله عنه قال : استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر : أضحك الله سنك يارسول الله ؛ فقال النبى ﷺ : عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . فقال عمر : فأنت أحق أن يهبن يارسول الله ، ثم قال عمر : يا عدوات أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟ فقلن : نعم . أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : إيهًا يا ابن الخطاب ، والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان سالكًا فجًّا قط إلا سلك فَجًّا غير فجِّك[1] .

وقال فى عثمان رضى الله عنه فيما روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ مضطجعًا فى بيتى كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه ، فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ؟ فقال ﷺ : ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة[2] .

وقال فى الإمام على رضى الله عنه فيما رواه عامر بن سعد بن

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه الإمام مسلم .

أبى وقاص عن أبيه قال : رسول الله ﷺ لعلى : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى[1] » .

وقال فيه أيضًا فيما رواه مسلمة قال : كان على قد تخلف عن النبى ﷺ فى خيبر وكان به رمد ، فقال أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ ؟ فخرج علىّ فلحق بالنبى لله ، فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله فى صباحها قال رسول الله ﷺ : لأعطين الراية أو ليأخذن الراية غدًا رجل يحبه الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله يفتح الله عليه ، فإذا ما نحن بعلى وما نرجوه : فقالوا هذا على ، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه[2] .

وكان منهم سيف الله ، روى البخارى عن أنس رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم[3] .

وحوارى رسول الله ﷺ : عن جابر رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : إن لكل نبى حوارى ، وإن حوارىّ الزبير بن العوام[4] .

وما من شك فى أن ابن عيينة لم يكن يقصد كبار الصحابة ، ومع ذلك فإن هذه الكلمة حينما تصدر عن ابن عيينة لها وزنها الكبير ،

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه البخارى .

لأن ابن عيينة كان من أعلم الناس بالسنة ، وبفضل الصحابة رضوان الله عليهم .

ولعل من أسباب هذه الكلمة ما يعلمه ابن عيينة من صفات كثيرة تحلى بها ابن المبارك ، فقد روى أبو حاتم عن إسحاق ابن محمد بن إبراهيم المروزى : نعى ابن مبارك إلى سفيان بن عيينة فقال : لقد كان فقيها عالمًا عابدًا زاهدًا شيخًا شجاعًا شاعرًا .

ولقد تحدث الكثير ممن كتب عن ابن المبارك عن إمامته ، والإمامة هنا تعنى الإمامة فى العلم ، فعن العمرى يقول : ما رأيت فى دهرنا هذا أحدًا يصلح لهذا الأمر إلا رجلا أتانى إلى منزلى فأقام عندى ثلاثًا يسألنى عن غير ما يسألنى عنه أهل هذا الدهر ، فصيح اللسان ، إلا أن اللغة شرقية يكنى أبا عبد الرحمن ، معه غلام يقال له سفير ، فقلنا له : هذا عبد الله بن المبارك ، فقال : هكذا ينبغى ، إن كان معى أحد يصلح لهذا الأمر فذاك ، قال عبيد – يعنى الاقتداء بالعلم » .

وعن عبد الرحمن بن مهدى قال : الأئمة أربعة : سفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وحماد بن زيد ، وابن المبارك » .

وعن المسيب بن واضح قال : سمعت أبا إسحاق الفزارى يقول : « ابن المبارك إمام المسلمين » ، « ورأيت أبا إسحاق بين يدى ابن المبارك قاعدًا يسائله » .

وقال العمرى : ابن المبارك يصلح لهذا الأمر – فقال له رجل : أى شىء ؟ قال : الإمامة .

ولكنها أيضًا تعنى الإمامة فى الفضل ، فهو عالم ، فاضل ، كما تحدث

المؤرخون عن علمه فإنهم تحدثوا عن فضله ، بل إنهم كانوا يعدون صفاته الكثيرة المبررة لإمامته ومن ذلك :

قال الحسن بن عيسى : اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك مثل ابن موسى ومخلد بن حسين وغيرهما فقالوا : تعالوا حتى نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير ؛ فقالوا : جمع العلم ، والفقه ، والأدب ، والنحو ، واللغة ، والشعر ، والفصاحة ، والزهد ، والورع ، والإنصاف ، وقيام الليل ، والعبادة ، والحج ، والغزوة ، والفروسية ، والشجاعة ، والشدة فى بدنه ، وترك الكلام فى ما لا يعنيه ، وقلة الخلاف على أصحابه .

وقال الحاكم : « هو إمام عصره فى الآفاق ، وأولاهم بذلك علما وزهدًا وشجاعة وسخاء » .

وقال ابن حبان فى الثقات : كان فيه خصال لم تجتمع فى أحد من أهل العلم فى زمان فى الأرض كلها .

وعن العباس بن مصعب قال : جمع عبد الله بن المبارك ؛ الحديث والفقه والعربية ، وأيام الناس ، والشجاعة والتجارة والسخاء والمحبة عند الفراق » .

وقال إسماعيل بن عباس : ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك ، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فيه » .

وبقى بعد ذلك التقدير العام لابن المبارك ، يقول على بن المدينى : « انتهى العلم إلى ابن المبارك ومن بعده إلى يحيى بن معين » .

ولقد سئل يحيى بن معين – الذى يقول على بن المدينى : إن العلم انتهى إليه – عن ابن المبارك ، فقال إنه : « سيد من سادات المسلمين ،

وقال أيضًا : كان عبد الله بن المبارك رحمه الله ، كيسًا متثبتًا وثقة ، وكان عالما صحيح الحديث .

وعن عبيد بن جناد أبو سعيد قال : قال لى عطاء بن مسلم : ياعبيد ؛ رأيت عبد الله بن المبارك ؟ قلت : نعم ، قال مارأيت مثله ولا ترى مثله .

وقال النسائى : « لا تعلم فى عصر ابن المبارك أجل من ابن المبارك ولا أعلى منه ، ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه » .

وأما تقدير أصحاب كتب الطبقات ، فإنه موفور :

من ذلك تقدير صاحب كتاب الحلية ، قال : « ومنهم السخى الجواد ، الممهد للمعاد ، والمتزود من الوداد ، أليف القرآن والحج والجهاد جاد فساد وروجع فزاد ؛ ماله مشارك ، وفعله مبارك وقوله مبارك ؛ شاهانشاه ، عبد الله بن المبارك رضى الله تعالى عنه .

وقيل : « إن التصوف اعتداد لا ازدياد ؛ واستعداد وارتياد » أهـ .

وتقدير الشعراء : يقول عمار بن الحسن يمدح ابن المبارك :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأخيار فى كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت هلالها

وقد كان ابن المبارك صديقًا للإمام مالك ، يقول يحيى بن يحيى الأندلسى : كنا فى مجلس مالك فاستؤذن لابن المبارك ، فأذن فرأينا مالكًا تزحزح له فى مجلس ، ثم أقعده بلصقه ولم أره تزحزح لأحد فى مجلسه غيره ، فكان القارئ يقرأ على مالك فربما مر بشىء فيسأله مالك ماعندكم فى هذا ؟ فكان عبد الله يجيبه بالخفاء

ثم قام فخرج ، فأعجب مالك بأدبه ، ثم قال لنا : هذا ابن المبارك فقيه خراسان .

ونختم هذه المجموعة من الآراء فى ابن المبارك بما قال الجليلى فى الإرشاد : ابن المبارك الإمام المتفق عليه ، له من الكرامات مالا يحصى ، يقال : إنه من الأبدال .